

ملامح تجديد البلاغة في مدرسة التفسير البياني

د. يوسف ولد النبية

جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر

youcefouldennebia@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2018 / 05 / 19 تاريخ القبول: 2019 / 01 / 27 تاريخ النشر: 2019 / 01 / 30

الملخص :

ابتغينا في هذه الورقة البحثية أن نستبين ملامح تجديد البلاغة في مدرسة التفسير البياني؛ حيث حاولت هذه المدرسة أن تضيفي على الدرس الإعجازي البلاغي روحا جديدة. وقد ارتكزت هذه الورقة على ثلاثة عناصر رئيسة؛ أولها: الدرس البلاغي بين المعيارية والوصفية. وثانيها: التطبيقات البلاغية في التفاسير، وقد مثلنا لذلك بتفسيري الزمخشري والطاهر بن عاشور. وثالثها: مظاهر تجديد البلاغة في مدرسة التفسير البياني، مركّزين الحديث على ثلاثة أعلام؛ سيد قطب، وعائشة عبد الرحمن، وفاضل السامرائي. ثم ختمنا هذه الورقة ببعض النتائج مشفوعة ببعض التوصيات.

الكلمات المفتاحية: تجديد البلاغة؛ مدرسة التفسير البياني؛ الدرس الإعجازي البلاغي؛ المعيارية؛ الوصفية..

Abstract:

This paper aims at reflecting the features of the rhetoric renewal in the School of Interpretation. This school attempted to introduce a new spirit to the miraculous rhetorical lesson. This paper is based on three main elements: First, the rhetorical lesson between normative and descriptive. Second, the rhetorical applications in the interpretations in which an interpretation of Zamakhshari and Tahir bin Ashour are illustrated. Third, the characteristics of rhetoric renewal in the school of interpretation of the graphic are presented with a focus on three scholars; Sayed Quth, Aisha Abdul Rahman and Fadel Samurai. In conclusion, some recommendations are made.

Key words: *rhetoric renewal; School of Interpretation; miraculous rhetorical lesson; normative; descriptive..*

مقدمة:

من المعروف أنّ الإرهاصات الأولى للبلاغة العربية قد ظهرت -قبل عهد التدوين- مرتبطة بأحكام نقدية توجيهية؛ قائمة على الانطباعية، والتذوق الشخصي للنصوص الأدبية، بغية استشفاف جمالياتها وبيانها، وتوجيه أصحابها توجيهًا يبتغي أسمى مراتب البيان.

وفي عهد التدوين -وبخاصة في نهاية القرن الثاني الهجري- أخذ الدرس البلاغي بعدا وصفيا، يقوم على تفسير النصوص الأدبية، واستبانة مواطن الإجادة فيها ومواطن الإخفاق.. وفي هذا العهد، ارتبط الدرس البلاغي أكثر بإعجاز القرآن، باعتبار القرآن الكريم النموذج الأسمى للبلاغة العربية؛ حيث كانت بلاغته مُلهمة لكثير من الدارسين في استنباط أحكام البلاغة وقواعدها، كما كان الحال عند أبي عبيدة معمر بن المثنى والجاحظ.. ليستقرّ الدرس البلاغي -

بعدئذ - على علوم البلاغة المعروفة (المعاني، والبيان، والبدیع) عند السَّكَّاکي، وغيره ممَّن نحا بالدرس البلاغي منحى معياريا.

يُبدَّ أنَّه في العصر الحديث ظهرت مدرسة التفسير البياني، التي اهتمت بالبحث في أسرار التركيب في التعبير القرآني، محاولة أن تضيفي على الدرس الإعجازي البلاغي روحا جديدة، مستوحاة من خصائص النظم القرآني من جهة، ومستأنسة بالمنجزات البلاغية التراثية من جهة أخرى. وقد حمل لواء هذه المدرسة فريق من العلماء والباحثين، يتقدمهم الشيخ أمين الخولي، وسيد قطب، وعائشة عبد الرحمن، وفاضل السامرائي..

من هذا المنطلق، ابتغي أن نسَمِّ هذه الورقة البحثية بملاحم تجديد البلاغة في مدرسة التفسير البياني، وقد تناولناها من خلال ثلاثة عناصر رئيسة؛ أولها: الدرس البلاغي بين المعيارية والوصفية. وثانيها: التطبيقات البلاغية في التفاسير، وقد مثَّلنا لذلك بتفسير الزمخشري والطاهر بن عاشور. وثالثها: مظاهر تجديد البلاغة في مدرسة التفسير البياني، مركزين الحديث على ثلاثة أعلام: سيد قطب، وعائشة عبد الرحمن، وفاضل السامرائي. ثم ختمنا هذه الورقة ببعض النتائج مشفوعة ببعض التوصيات.

1. الدرس البلاغي بين المعيارية والوصفية

لقد كانت أساليب البلاغة العربية وفنونها ترد على ألسنة الشعراء والخطباء في الجاهلية سجيَّة، لا تكلف فيها، لذلك لم يكونوا بحاجة إلى قواعد بلاغية تعلِّمهم صنعة الكلام. ومع ذلك، فقد تحوَّل بعض الشعراء إلى نقاد يفاضلون بين الشعراء، ويبدون آراءهم النقدية في شعرهم، وما تفضيل النابغة شعر الخنساء على شعر حسان في سوق "عكاظ" - كما يذكر الرواة¹ - إلا شاهد عدل على ذلك..

من "هنا في مثل هذه الأسواق الأدبية، ومع هذه المناظرات نشأت بدايات العلوم البلاغية رفقة أحكام نقدية بسيطة تعتمد على التذوق الشخصي الخاص، إلا أن بعض الشعراء أدركوا بعض المعاني البلاغية، كما عرفوا بعض عيوب البلاغة كالعي والتعقيد، واهتموا بالإيجاز وتنويع الأساليب".²

وفي بدايات العصر العباسي، كانت الحاجة إلى وضع قواعد البلاغة العربية، وقد لخص الشيخ أحمد مصطفى المراغي (ت 1371هـ) الأسباب التي دعت إلى نشأة علوم البلاغة في ثلاثة؛ أولها: اختلاف أئمة الأدب وعلماء الكلام في بيان وجوه إعجاز القرآن، وثانيها: قيام الحجاج والمناظرة بين أئمة اللغة والنحو أنصار الشعر الجاهلي، والأدباء والشعراء أنصار الشعر المحدث المُشاكل لبيئتهم وحضارتهم، وثالثها: الخلاف بين أئمة الأدب في بيان وجوه تحسين الكلام حتى يرقى في سلم البلاغة.. "كل أولئك لفتوا أنظار أئمة البلاغة إلى أن يضعوا قوانين وضوابط يتحكمون إليها عند الاختلاف، وتكون دستوراً للناظرين في آداب العرب منشورها ومنظومها".³

من هنا، ظهرت بدايات التعقيد للبلاغة العربية؛ فكانت لبناته الأولى مع أبي عبيدة مَعمر بن المثنى (ت 211هـ) في "مجاز القرآن"، والجاحظ (ت 255هـ) في "البيان والتبيين"، وعبد الله بن المعتز (ت 296هـ) في "البديع".. وفي القرن الخامس الهجري ظهر عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) بكتابه "أسرار البلاغة في علم البيان" و"دلائل الإعجاز في علم المعاني"، اللذين عُدّا فتحاً جديداً في البلاغة العربية بعامّة، والبلاغة القرآنية بخاصة.

على أنه من بعد أولئك الدارسين، أخذ الدرس البلاغي، لاسيما في بعده الإعجازي، يتسع للتعقيد البلاغي، بتقسيماته المنطقية، وتفرعاته الاصطلاحية، ووضع المتون والشروح والخواشي، كما هو الحال عند السكاكي (ت 626هـ) في "مفتاح العلوم"، والخطيب القزويني (ت 739هـ) في "الإيضاح في علوم البلاغة".. وعندئذ تحوّل الدرس الإعجازي البلاغي، من الوصفية إلى المعيارية، ومن عرض البلاغة على القرآن إلى عرض القرآن على البلاغة!

وقد علّل تمام حسان سبب نشأة الدرس المعياري في علوم العربية عموماً، وفي علوم البلاغة خصوصاً، بقوله: "فلما انتهى عصر الاستشهاد، وكان على اللغويين أن يستمروا في دراسة اللغة دون أن تتجدد الشواهد في أيديهم، وجدوا أنفسهم بموضع اضطرار فيه إلى أن يدوروا حول ما وضعه السلف من قواعد، فجعلوا كلامهم عنها، لا عن مادة اللغة، ولم يعد ثمة مكان للاستقراء، لأن السلف في نظرهم كانوا أتموا هذه العملية، وأوقفوا العمل فيها برفض الجديد من الشواهد؛ وهنا بدأ فرض القواعد على الأمثلة، وبدأت التمرينات العقلية في تركيب الجمل، وبدأ القول بالوجوب والجواز، وأصبحت القواعد سيّدة النصوص".^٤ وما من شك في أنّ الدرس المعياري البلاغي قد انسحب هو أيضاً على تفاسير القرآن الكريم كما سيأتي.

2. التطبيقات البلاغية في التفاسير

لقد اهتمت التفاسير البلاغية اهتماماً كبيراً بعلوم البلاغة الثلاثة؛ علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، واتخذتها عوناً لها في فهم أساليب القرآن الكريم، واستعملاته الخاصة بالألفاظ والتراكيب.. وفي هذا الشأن، تحدث ابن خلدون في فصل "البيان" عن أهمية البلاغة في فهم كتاب الله، مركزاً على الذوق الذي ينشأ بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته، قال: "واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأنّ إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه. فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك، لأنهم فرسان الكلام وجهابذته، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحّه. وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون".^٥

وقد اشتهر من التفاسير البلاغية في القديم تفسير "الكشاف" للزّخشي (ت 538هـ)، وفي الحديث تفسير "التّحرير والتنوير" للطاهر بن عاشور (ت 1393هـ/ 1973م). وكان لكليهما قدم راسخة في علوم البلاغة، فضلا عن غيرها من علوم النقل والعقل.

فأمّا الزّخشي فقد تلقّف نظرية النظم التي اهتدى إليها عبد القاهر الجرجاني، وعلى هدي تلك النظرية فسّر الزّخشي كتاب الله، باعتباره معجزة لغوية تجلّت في نظمه وبلاغته، ومما قاله في الكشاف: "ومن حقّ مفسّر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذهب بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدي سليما من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة، فهو من تعاهد النظم والبلاغة".^٥

كما ذكر في موضع آخر أنه لا يدرك حقائق التفسير وطرائقه إلا رجلٌ برع في علمين مختصين بالقرآن؛ هما علم المعاني وعلم البيان، آخذا من سائر العلوم بحظ، فارسا في علم الإعراب، ذا دراية بأساليب النظم والنثر، فضلا عن أن يكون جامعا بين ملكة الحفظ وملكة الذّوق..^٦

ورغم المسائل الاعترالية المبطنّة في تفسير الكشاف،^٧ لم يُخف ابن خلدون ثناءه على هذا التفسير، إذ رأى أنّ أكثر تفاسير المتقدمين عُفِلَ من الذّوق، "حتى ظهر جار الله الزّخشي ووضع كتابه في التفسير، وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن، بما يبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة. ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة، مع وفور بضاعته من البلاغة. فمن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة، حتى يقتدر على الردّ عليه من جنس كلامه، أو يعلم أنها بدعة فيعرض عنها ولا تضرّ في معتقده، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب، للظفر بشيء من الإعجاز"^٨

وأما الطاهر بن عاشور فرأى أنّ "لعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير لأنها وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني وإظهار وجه الإعجاز ولذلك كان هذان العلمان يُسمّيان في القديم "علم دلائل الإعجاز"^٩. وقد تقفّى الطاهر

بن عاشور في هذا المنحى التفسيري خطى ما ذهب إليه أساطين البلاغة العربية، كالزنجشري والجرجاني والسكاكي وغيرهم.¹¹

وإذا كانت التفاسير البلاغية قد رامت، في تطبيقاتها، استبانة خصائص البلاغة القرآنية، فإن تطبيقاتها تلك ليست أمراً هيناً - كما يذهب أحد الباحثين -؛ لأنها هي حياة الدرس البلاغي ونماؤه، فقواعد البلاغة وأصولها يمكن أن تُجمع في صفحات والمهم هو التطبيق والنظر المثبت في النص المدروس، وتحليل تراكيبه، وإبراز محاسن صياغته، ودلالات خصوصياته. والذي يعين على ذلك الحس المرهف، والذوق المتمرس البصير، والمنهج العلمي التذوقي هو أصح المناهج وأقومها في دراسة البلاغة، فإذا تخلف الذوق كانت أصولاً علمية شاحبة كما هي في المفتاح، وإذا تخلفت القدرة على التحليل والتفسير كانت ضرباً من التحكمات الشخصية، تدفع بها إلى متاهات غير منضبطة، وتحديد المراد من الخصائص البلاغية لا يتأتى إلا بالحس الأدبي، ولهذا أشار عبد القاهر والزنجشري حين ذكرا الطبع المتهيّء، والقريحة الوقّادة.¹²

يبدّ أننا وجدنا الظاهرة الإعجازية تتحول في الدرس البلاغي - من بعد عبد القاهر، وحتى الزنجشري - "إلى شواهد، وأمثلة تعليمية، تحصر الجمالية في شكلية بديعية، أو نظمية مقتطعة من سياقها النظمي، الأمر الذي أضّر بروح التذوق، إذ أزاح فنية الأثر القرآني عن مجال رحابتها النصية، إلى رؤية حدّية محصورة.. لقد رصدت مؤلفات ابن الأثير، والسيوطي، والرازي وآخرين جمالية القرآن في تعليمات بلاغية صماء، على ما ميّز أعمال الرازي من سعة تأويلية استوعبت ثقافة عصره".¹³

ويفضي بنا هذا التحوّل في الدرس البلاغي إلى القول: إنّ إفراط التفاسير البلاغية - على ما تحمله من نفائس وذخائر - في احتكامها إلى قواعد البلاغة في فهم أساليب القرآن الكريم، جعلها تسقط في المعيارية، وذلك بإخضاع نصوص القرآن للبلاغة، لا إخضاع البلاغة لنصوص القرآن، وهو ما حاولت التفاسير البيانية تلافيه فيما بعد.

3. ملاح تجديد البلاغة في مدرسة التفسير البياني

لقد عُنت مدرسة التفسير البياني عناية بالغة بعلوم اللسان العربي، بما في ذلك علوم البلاغة، بغية استشفاف أسرار اللغة القرآنية، وفقه مقاصدها، على نحو ما نجد ذلك جلياً عند أعلامها البارزين، كالشيخ أمين الخولي (1895-1966م) رائد المنهج البياني في التفسير، أو ما يُعرف بـ "مدرسة الأمناء"، وسيد قطب (1906-1966م) مؤصل نظرية "التصوير الفني في القرآن"، وعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي) (1913-1998م)، وفاضل صالح السامرائي (و1933م).

ويهتم التفسير البياني بالبحث في أسرار التركيب في التعبير القرآني، معتمداً في ذلك على السياق القرآني كدراسة المفردات والتراكيب من جهة، ومستأنسا بالسياق الخارجي، كمعرفة أسباب النزول من جهة أخرى.¹⁴

وقد لخصت عائشة عبد الرحمن ضوابط المنهج البياني الذي أسس له الشيخ "أمين الخولي" في كتابه "مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب" بقولها:

1- الأصل في المنهج، تناول الموضوعي لما يُراد فهمه من كتاب الإسلام. ويُبدأ بجمع كل ما في الكتاب المحكم من سور وآيات في الموضوع المدروس.

2- في فهم ما حول النص: تُرتب الآيات فيه على حسب نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان، كما يُستأنس بالمرويات في أسباب النزول من حيث هي قرائن لا بست نزول الآية دون أن يفوتنا ما تكون العبرة فيه بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه الآية. وأنّ السبب فيها ليس بمعنى الحكمية أو العلية التي لولاها ما نزلت الآية..

3- في فهم دلالات الألفاظ: نلتمس الدلالة اللغوية الأصيلة التي تعطينا حسّ العربية للمادة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية. ثم نخلص لِلْمَح الدلالة القرآنية باستقراء كل ما في القرآن من صيغ اللفظ، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة، وسياقها العام في القرآن كله.

4- في فهم أسرار التعبير: نحتكم إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين بما يحتمله نصا وروحا. ونعرض عليه أقوال المفسرين فتقبل منها ما يقبله النص، ونتحاشى ما أقحم على كتب التفسير من مدسوس الإسرائيليات وشوائب الأهواء المذهبية، وبدع التأويل.

كما نحتكم إلى الكتاب المبين في التوجيه الإعرابي والأسرار البيانية، نعرض عليه قواعد النحويين والبلاغيين ولا نعرضه عليها، ولا نأخذ فيه بتأويل لعلماء السلف على صريح نصه وسياقه، لتسوية قواعد الصنعة النحوية والبلاغية، إذ القرآن هو الذروة العليا في نقاء أصالته وإعجاز بيانه، وهو النص الموثق الذي لم تشبه أدنى شائبة مما تعرضت له رواية نصوص الفصحى من تحريف أو وضع..¹⁵

ويبدو من هذه الضوابط، أن التفسير البياني يضم مجموعة من المناهج الأخرى، كالمنهج الاستقرائي المتمثل في استقراء اللفظ القرآني في مواضع وروده في المصحف الشريف، والمنهج السياقي المتضمن السياق الخارجي المتمثل في أسباب النزول، والسياق الداخلي المتمثل في سياق الآية أو السورة أو القرآن كله، فضلا عن التدقيق الخاص للدارس أو المفسر.

وقد جعل أهل التفسير البياني لعلوم العربية النصيب الأوفر في هذا المنحنى التفسيري، دون إغفال ما يحتاجه المتصدّي للتفسير العام بطبيعة الحال. ومن الشروط التي ينبغي توافرها في من يبحث في البيان القرآني: التبخر في علم اللغة، والتصريف، والنحو، والبلاغة (المعاني، والبيان، والبديع)، والقراءات، ومعرفة أسباب النزول، والنظر في السياق، والعلم بخصوصيات الاستعمال القرآني (كاستعمال الرّيح للشرّ، والرّيح للخير)، والنظر في الوقف والابتداء، ومراجعة المواطن القرآنية التي ورد فيها أمثال التعبير المراد تبيينه..¹⁶

من هنا، يتبين أن التفاسير البيانية حاولت أن تخلص الدرس التفسيري من الشوائب التي علقّت به حيناً من الدهر، كالإسرائيليات، وكثرة الاصطلاحات العلمية (اللغوية، والفلسفية، والمنطقية..)، والخلافات المذهبية، وما إلى ذلك، محاولة أن تحرّره من المعيارية، لتتزعّج به نحو

الوصفية، وهي بذلك تسعى إلى إرجاع التلقّي كما كان في عهده الأوّل؛ لأنّ القرآن حينما أبهر الناس -عصر نزوله- إنما أبهرهم ببيانه وبلاغته ونظمه.

وحتى يتضح البعد التجديدي للبلاغة العربية في مدرسة التفسير البياني، يستحسن أن نتناول ثلاثة أعلام، كان لها الأثر البالغ في هذه المدرسة، بصرف النظر عن السمات الخاصة التي يتميز بها كلّ علم، ونخص بالذكر: سيد قطب، وعائشة عبد الرحمن، وفاضل السامرائي.

أ. تماهي البلاغة مع التصوير الفني في القرآن عند سيد قطب

تتبّع سيد قطب نظر القدامى في الآثار النصّية فوجده قد مرّ بمرحلتين اثنتين؛ أولهما وقوف الباحثين في بلاغة القرآن عند خصائص النصوص المفردة، وعدم تجاوزها إلى الخصائص العامة، وثانيهما مرحلة الإدراك لمواضع الجمال المتفرقة، وتعليل كل موضع منها تعليلًا منفردًا. على أنهم لم يصلوا أبداً -كما ذهب- إلى المرحلة الثالثة؛ وهي مرحلة الإدراك للخصائص العامة، لا في الأدب ولا في القرآن. وبذلك بقي أهمّ مزايا القرآن الفنية مغفلاً خافياً، وأصبح من الضروري لدراسة هذا الكتاب المعجز من منهج للدراسة جديد، ومن بحث عن الأصول العامة للجمال الفني فيه، ومن بيان للسمات المطردة التي تميز هذا الجمال عن سائر ما عرفته اللغة العربية من أدب. وإنّ هذا الكتاب العظيم لخصائص مشتركة، وطريقة موحدة في التعبير عن جميع الأغراض، إنها "التصوير الفني".¹⁷

وقد عرّف سيد قطب نظريته بقوله: "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فهو يعبر بالصورة المحسّنة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية؛ وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور؛ وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية... ويجب أن نتوسع في معنى التصوير، حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن. فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييل؛ كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل. وكثيرا ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق، في إبراز صورة من الصور، تتملأها العين والأذن،

والحس والخيال، والفكر والوجدان. وهو تصوير حيّ منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة.¹⁸

ويبدو أنّ سيد قطب قد نحا بالبلاغة منحى فنيا جماليا، استمد معالمة من خصائص القرآن التعبيرية والتصويرية، وقد جسّد هذا المنحى الفني الجمالي في تفسيره "في ظلال القرآن"، الذي صار مرجعا للباحثين فيما بعد، يغرفون منه ما تعلق بالتصوير الفني في القرآن خاصّة. على أنّ سيد قطب لم يغفل الإشارة إلى أنّ عبد القاهر الجرجاني كاد أن يصل إلى شيء كبير في كتابه "دلائل الإعجاز"، لولا انشغاله بقصة "المعاني والألفاظ"،¹⁹ ومما قاله عنه: "لقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها".²⁰

ومن خصائص التصوير الفني في القرآن: "المعاني الذهنية التي تخرج في صورة حسية"، ومثال ذلك: أنّ القرآن يريد أن يبيّن أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله، ولن يدخلوا الجنة إطلاقا وأنّ القبول أو الدخول أمر مستحيل، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: 40)، قال: "ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ في سمّ الخياط؛ ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم "الجملة" خاصة في هذا المقام؛ ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثير، ليستقر في النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة، في أعماق النفس، وقد وردا إليها من طريق العين والحس -تخيلا- وعبرا إليها من منافذ شتى، في هينة وتؤدة، لا من منفذ الذهن وحده، في سرعة الذهن التجريدية".²¹

فمن الملاحظ في هذا الشاهد، أنّ سيد قطب حاول أن يضع المتلقي في جوّ الآية الكريمة التي تحدثت عن استحالة دخول المكذّبين الجنة، لاستحالة دخول الجملة (الحيوان المعروف أو الحبل الغليظ كما ذكر المفسّرون) في ثقب الإبرة، من باب تعليق المستحيل على الشيء الذي لا يمكن

حدوثة، ليتجاوز سيّد بهذا التوصيف الأساليب المعيارية للبلاغيين، إذ أنهم لا يزيدون -في الغالب- عن كون الآية تتضمن تشبيها.

ب. احتكام البلاغة إلى القرآن عند عائشة عبد الرحمن

عكفت عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) حيناً من الدهر على تطبيق المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم، وقد تجلّى ذلك في دراساتها المختلفة، أهمها: "التفسير البياني للقرآن الكريم"، و"الإعجاز البياني للقرآن". ومن أهم ما يقوم عليه منهجها البياني في التفسير عرض قواعد النحويين والبلاغيين على نصوص القرآن الكريم لا العكس.

فقد نظرت "بنت الشاطئ" في الفواصل القرآنية، التي نالت عناية الأجيال الأولى من علماء العربية، قصد تدبر أسرار التعبير في هذه السمة الأسلوبية اللافتة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ (الضحى: 1 - 3)، ومما قالت في تفسير هذه السمة الأسلوبية: "ذهب "الفراء" إلى أن القرآن جرى فيها على طرح كاف الخطاب من: قلاك، اكتفاء بالكاف الأولى -في: ودعك- ولمشكلة رؤوس الآيات. وعدّ "الفخر الرازي من وجوه حذف الكاف رعاية الفاصلة... ولو كان البيان القرآني يتعلق بهذا الملحظ اللفظي فحسب، لما عدل عن رعاية الفاصلة في الآيات بعدها ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝١ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝٢ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: 9 - 11) وليس في السورة كلها "ناء" فاصلة. بل ليس فيها حرف ناء، على الإطلاق. وعلى مذهبهم كانت الفواصل ترعى بمثل لفظ: فخبّر، لمشكلة رؤوس الآيات بالعدول إلى هذا اللفظ، عن: "فحدّث".

ونرى، والله أعلم، أنّ حذف كاف من "وما قلى" مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللفظ، هي تحاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى، في موقف الإيناس، بصريح القول: وما قلاك. لما في القلى من حس الطرد والإبعاد وشدة البغض. وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعلّ الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا

مع رجاء العودة وأمل اللقاء. وحذفت كاف الخطاب في الفواصل بعدها، لأن السياق بعد ذلك أغنى عنها".²²

ومما يؤخذ من المنهج التفسيري عند بنت الشاطي، أنها تعرض في البداية أقوال علماء السلف في الظاهرة الأسلوبية المراد تفسيرها، توطئة لتفسيرها الخاص، الذي يعتمد أساسا على تدبر سياق الآية، وسياق السورة، بغية معرفة أسرار التعبير القرآني، واستشفاف جمالياته البلاغية. وليس بالضرورة أن تلتزم بنت الشاطي في تفسيرها بالأحكام المعيارية للبلاغيين، وإنما تبدو بصمتها واضحة جلية. ولاشك في أمّها قد جنت -هي ومن تقفّى خطاها- من ثمار هذا المنهج الشيء الكثير.

ج. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني عند فاضل السامرائي

قدّم فاضل صالح السامرائي جهودا كبيرة في التفسير البياني، بغية الوقوف على أسرار التركيب في التعبير القرآني، "كالتقديم والتأخير والذكر والحذف واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير".²³

ويبدو من هذا، أنّ التفسير البياني عند السامرائي يقوم، أكثر ما يقوم، على البلاغة، لكن ليس في بعدها المعياري، وإنما في بعدها الوصفي - التذوّقي، الذي يتيح لمتدبر القرآن ودارسه الوقوف على بعض أسرار التعبير القرآني.. ومن أهم كتبه التي تناولت منهجه البياني في التفسير: "بلاغة الكلمة في التعبير القرآني"، و"لمسات بيانية في نصوص من التنزيل"، و"على طريق التفسير البياني"..

ولا بأس أن نسوق في هذا المقام نموذجا للتفسير البياني عند فاضل السامرائي، بما يبيّن تعليله للتقديم والتأخير في الذكر الحكيم، ومما قاله في هذا المناط: "فالتقديم والتأخير إنما يكونان بحسب ما يقتضيه المقام فقد يقدّم لفظا في مكان ويؤخّره في مكان آخر بحسب ما تقتضيه البلاغة. والآن نذكر أمثلة من هذا الباب: فمن ذلك تقديم السمع على البصر والبصر على السمع، فإنه كثيرا ما يُقدّم السمع على البصر في القرآن الكريم وذلك نحو قوله تعالى: "فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا"

(الإنسان:2). قالوا: لأنَّ السَّمْعَ أفضل وهو أهم في مجال الدعوة والتبليغ لأنَّ الأصمَّ أبعد عن الفهم من الأعمى، أو لأسباب أخرى.

وقد يقدّم البصر على السمع إذا اقتضى المقام ذلك ومن ذلك قوله تعالى في أصحاب الكهف: **قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾** (الكهف:26) فقدّم البصر على السمع وذلك أنّ الكلام على أصحاب الكهف، وأصحاب الكهف فرّوا من قومهم ولجؤوا إلى الكهف لثلا يراهم أحد لكن الله سبحانه وتعالى يراهم وهم فارّون من قومهم، ويراهم في ظلمة الكهف ويرى تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وهذا كله في مجال الرؤية لا في مجال السمع".²⁴

ويبدو من هذا، أنّ النظر في السياق القرآني مُحْتَكَمٌ رئيس في فهم البلاغية القرآنية عند فاضل السامرائي؛ لأنّ السياق من أهم القرائن الدالة على المعنى، والمعينة على فهم المراد، مثلما تبيّن من تعليله سبب تقدّم السمع على البصر -وهو الغالب في القرآن الكريم- وتقدّم البصر على السمع في قصة أصحاب الكهف.

خاتمة

لقد تبيّن من خلال هذه الورقة البحثية أنّ الدرس البلاغي بدأ وصفيًا؛ بقيامه على التذوق الشخصي للنصوص، وعلى أحكام نقدية توجيهية لمن يبتغي أسمى مراتب البيان، ثم انتهى به الأمر ليصير معياريا؛ تخضع فيه النصوص للقواعد لا العكس، وعلى هذا النحو سار كثير من التفاسير البلاغية.

كما تبيّن أيضا، أنّ التفاسير البيانية رامت تحرير الدرس البلاغي من المعيارية، لتتجه به نحو الوصفية، وتفسير النص القرآني الحكيم في ضوء خصائصه الإعجازية؛ النّظمية والتعبيرية، جاعلة بذلك هذا النص سيّدا على قواعد البلاغة، فضلا عن قواعد اللغة الأخرى، كلّ ذلك في ضوء منهج علمي تذوّقي، لا تعارض فيه.

ومن التوصيات التي يمكن أن نخرج بها من هذه الورقة ما يلي:

1. العمل على تنمية ملكة التذوق البلاغي والبياني واللساني للقرآن الكريم لدى طلبة الدراسات القرآنية، وذلك بجعلهم يتفاعلون مع نماذج تطبيقية في هذا الشأن.
2. توجيه البحوث الجامعية نحو دراسة نصوص القرآن الكريم، والحديث الشريف، في ضوء المنهج البياني، الذي تتكامل فيه الضوابط العلمية مع التذوق الشخصي لتلك النصوص.
3. ترقية الخطاب العلمي - التعليمي، بما يمكن الطالب الباحث من فقه الدرس الإعجازي البلاغي؛ قديمه وحديثه..

قائمة المراجع:

1. ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988 م
2. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1982 م
3. أحمد شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني، (في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 م
4. أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1425 هـ/ 2004 م
5. أمين الخولي: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ط1، 1961 م
6. تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 1421 هـ/ 2001 م
7. الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، 1418 هـ/ 1998 م

8. سليمان عشراقي: الخطاب القرآني، مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998م
9. سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة/بيروت، ط14، 1413هـ/1993م
10. الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م
11. عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، القاهرة، ط3، 2004م
12. عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، ط7، (ب ت)
13. فاضل صالح السامرائي: على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـ/2002م
14. فاضل صالح السامرائي: من أسرار البيان القرآني، دار الفكر، عمّان، ط4، 1436هـ/2015م
15. محمد حسين أبو موسى: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي (ب ت)
16. محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1423هـ/2003م

الهوامش :

- ¹ أنظر مثلاً: ابن قتبية: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1982 م، 1/ 344
- ² أحمد شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني، (في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 م، ص 102
- ³ علوم البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1425 هـ/ 2004 م، ص 8، 9
- ⁴ اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 1421 هـ/ 2001 م، ص 12
- ⁵ المقدمة، تحقيق: حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988 م، 342، 343
- ⁶ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، 1418 هـ/ 1998 م، 1/ 186
- ⁷ م، ن، 1/ 96، 97
- ⁸ من ذلك قول الزمخشري في تفسير الآية "وَمَا زَرَقْنَا لَهُمْ يُنْفِقُونَ" (البقرة: 3) ما نصه: "وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله"، وهذا منه إيحاء ورمز إلى أنّ الرزق الحلال من الله، والرزق الحرام من العبد. ويرد عليه أهل السنة بقوله سبحانه: "هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَزُقُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ" (فاطر: 3)، فالله هو الخالق الرازق لا غيره. سواء كان الرزق حلالاً أو حراماً. ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1423 هـ/ 2003 م، 2/ 307
- ⁹ المقدمة، 342، 343
- ¹⁰ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 م، 1/ 19
- ¹¹ م، ن، 1/ 19 وما بعدها
- ¹² محمد حسين أبو موسى: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، ص 5، 6
- ¹³ سليمان عشراقي: الخطاب القرآني، مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص 50
- ¹⁴ ذكر الشيخ أمين الخولي أنّ التفسير البياني أو الأدبي يضمّ صنفين من الدراسة: دراسة ما حول القرآن، وتُعنَى بما يتصل بالبيئة العربية - المادية والمعنوية - التي ظهر فيها القرآن وكُتِبَ وُجِعَ وقُرئ.. فمن أمثلة البيئة المادية أرضها بجبالها وصحاريها، وطبيعتها بخصبها وجدها، ومن أمثلة البيئة المعنوية تاريخها ونظام الأسرة أو القبيلة فيها، وفنون العرب وعقيدتهم.. ودراسة في القرآن، كفهم دلالات ألفاظ القرآن وتراكيبه، وذلك بالاستعانة بالعلوم اللغوية كالنحو والبلاغة وغير ذلك: ينظر ما كتبه الشيخ بشي من التوسع في: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ط1، 1961، ص 307 وما بعدها
- ¹⁵ التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، ط7، (ب ت)، 1/ 10، 11
- ¹⁶ فاضل صالح السامرائي: على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 1423 هـ/ 2002 م، 1/ 7 وما بعدها
- ¹⁷ التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة/ بيروت، ط14، 1413 هـ/ 1993، ص 34، 35
- ¹⁸ م، ن، ص 36، 37

¹⁹ م،ن، ص 31

²⁰ م،ن، ص 33

²¹ م،ن، ص 34

²² الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، القاهرة، ط3، 2004م، ص 268، 269

²³ على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـ / 2002م، 7 / 1

²⁴ من أسرار البيان القرآني، دار الفكر، عمان، ط4، 1436هـ / 2015م، ص 115، 116